عشرة أيام

هادر الحوت*

فلنتعرّفْ سويًا على عزيز.

بسيط، ووحيد، ومتوسّط الحال؛ وذلك جلُّ ما في الموضوع. ولا يميّزه عن المجتمع الذي يقيم فيه سوى شهادته الجامعية، وقليلٍ من اللغة الإنكليزية

عزيز عبد القادر عزيز هذا هو الاسم الذي بقي ملتصقًا بالرجل طيلة الأربعين عامًا التي مضت من عمره.

حاول مرات أن يستدلّ على اسم عائلته الأصلي، ولكنْ دون جدوى. بائع الفول الذي كان يسترزق على ناصية شارع بيت أهله القديم قال له مرةً، وهو صبيّ، إنّ لنَسَبِه أصولاً كريمةً. وإلى الآن لم يفطنْ عزيز بعدُ إنْ كان الرجل صادقًا أو مستهزئًا.

لم ينجبْ أبوه غيرَه، وتمكّن بصعوبة من أن يؤمّن له تعليمَه حتى البكالوريوس. وبعدها اضطرّ عزيز إلى السفر إلى القاهرة والعمل هناك في مؤسّسة دراسات هندسية، حيث استأجر غرفةً صغيرة، وبذل ما استطاع من جهدٍ ليرتّبها كي تليق بمكانته، وليميّزها عن غرف جيرانه السمكري وسائقِ الأجرة والبقّال.

طوال فترة عمله، حصل عزيز على ترقيةٍ واحدةٍ جلبتْ معها الكثيرَ من العمل... والقليلَ من المال. لم يكن رؤساؤه يُطْلعونه على الخلفيات المادية للمؤسّسة، وإنْ كان الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة قد تحقّق عندما دَخَلَ مرةً عند رئيسه مطالبًا بتحسين راتبه، فردّ عليه بأنّ المؤسّسة تمرّ بظروف قاسية وأنّ المستقبل لا يُنْبئ بخير. وقتها تذكّر عزيز كلامَ العجّز وأقاويل «الله يرحم أيام زمان» التي تتكرر الآن بأسلوب منمّق. أيامَ زمان، كان إنجازُ خرائط التصميم باليد يتطلّب أسابيع، بينما أصبح الكومبيوتر الآن يضخّها في ظرف ساعات. ومع ذلك، ربما كان الماضي أكثر ازدهارًا!

إلى أن كان يوم .

تلبيةً لطلب المهندس أحمد عطيّة، مديرِ قسم الهندسة الإنشائية، بقي عزيز بعد انتهاء الدوام، واليومُ صيفي حارّ. وبعد مضيّ حوالى الساعة، دعاه المدير إلى مكتبه، وبادره بحماس مفتعل:

ـ أهلاً عزيز. أنت فين يا أخي؟

ـ المشاغل كتيرة، ولكن الحمد الله. إزّاي حضرتك؟

ـ الحمد الله.

ـ خير يا أحمد بيه؟

ـ أبدًا سلامتك. بسْ كنت عاوز أدّيلك المشروع ده. كلّ الأوراق اللازمة موجودة في الملف، ولازم تسليم التصميم مع المواصفات والكميّات في ظرف عشر تيّام.

ـ وهو إيه المشروع؟

ـ والله ما أنا عارف بالضبط. ادرسْه أنت بهدوء. أفتكر أنّه ليه علاقة بمبنى مميّز. العميل عاوز يركّب على سطحه معدّات ثقيلة جدًا.

ـ وحضرتكْ متأكّد أنّ عشر تيّام كافية؟ (سأل بقلق).

ـ وزيادة. ما فيش ولا قسم تاني حيتدخّل في الشغل، لا معماري ولا ميكانيكي ولا كهربائي ولا مَنْ يحزنون. انت وبس. وما افتكرش إنّك محتاج لتصميم أكثر من لوحة أو اتنين بالكتير. ومعاك المهندسين «عصمت» و«سامي» يساعدوك. عاوز إيه تاني يا عزيز؟

ـ سلامتك يا افندم، ما فيش مشكلة.

* ـ كاتب ومهندس لبناني شاب

ـ أهو كده. يلّلا مع السلامة.

خرج عزيز حاملاً ملف أمانة العشرة أيّام شاعرًا ببعض النشوة؛ فأحمد عطيّة قلّما كان يَطْلب مقابلته لإسناد المهامّ مباشرةً إليه، بل كان دائمًا يكتفي بإرسالها عبر المذكّرات أو البريد الإلكتروني. يبدو أنّ الدنيا ما زالت بخير، ولا شك أنّ أحمد عطيّة ـ وربما رؤساء عطيّة أنفسهم ـ بدأوا أخيرًا ينظرون نظرةَ تقدير إلى هذا العزيز المتفاني الذي صمّم عشرات المباني والجسور. وليس هذا فحسب، فهو من القلّة في القِسْم العالمين بمنشآت الإسمنت المسلّح والفولاذ. يبدو أنّ الله عزّ وجلّ سيكافئ صبره خيرًا، وهذا المشروع الصغير الجديد هو الفاتحة.

في صباح اليوم التالي، وبعد أن ثَبّت نظّارته السميكة على عينيه وتأكّد من ربطة عنقه، طلب من السكرتيرة مقابلةَ أحمد عطيّة فأذِنتْ له بالدخول. استقبله الثاني بابتسامة باهتة، وسأل بتهكّم:

ـ هيه، أنهيت أول لوحة؟

ـ حأنهيها يا افندم، ولكنْ كان عندي شوية أسئلة، إنْ ما كانش في مانع.

ـ أبدًا يا عزيز، قول يا حبيبي.

ـ المشروع في العراق؟

ـ الكلام ده مش مكتوب يا عزيز؟

ـ أيوه يا افندم. قصدي يعني، ولا مؤاخذة، العميل مين؟

ـ خلاص يا سيدي، العميل هو الجيش الأميركي.

ردّ عزيز بعفوية:

ـ مين يا افندم؟

ـ الجيش الأمريكي يا بطل. مع الأسف علاقتنا معاه مش مباشرة، وإنّما مع الحكومة المؤقتة اللّي مش عارف إيه.

ـ بس يا أحمد بيه، المبنى ده في غرب العراق، على بعد أقل من أربعين كيلومتر من الحدود السورية.

أجاب أحمد وقد بدأ صبرُه ينفد.

ـ إنْ شاء الله يا أخي يكون في سوريا نفسها، إنت مالك انت؟ هو كان مبنى أبوك؟

تلعثمَ عزيز وشعر أنّ أسئلته قد أوصلته إلى منعطف خطر، فأسرع ليؤكّد:

ـ حاضر يا أحمد بيه أنا بس كنت عايز أفهم المقصود من المشروع.

ـ الله يطوّلْك يا روح! ومن إمتى يا أخي المهندس الإنشائي بيسأل أسئلة زيّ دي؟ ما انت نفسك نفّذت فنادق للمعماري، ومصانع للميكانيكي، ومحطّات تحويل للكهربائي، وجسور لمهندسي الطرق. أنا نفسي ما باسألش عن المغزى من مشاريعنا. احنا مهندسي خدمات. فاهمني يا أبو العز؟

لم يكن أمام أبي العز من خيار سوى أن يَفْهم، فاكتفى بالقول:

ـ ما فيش مشكلة يا افندم، خلاص.

ولم يردّ عطيّة، بل اكتفى بإظهار قليل من الرضا وعاد إلى أوراقه. أمّا عزيز فتوجه توًا إلى مكتبه ليجهّز نظام العمل، وقبل نهاية النهار كان قد أَسْند للمهندسيْن الآخريْن المهامَّ المتعلّقة بهما.

قبل دخوله إلى شقته عند المساء، استوقفته جارتُه ابنةُ البقّال، وقالت:

ـ مساء الخير يا سي عزيز.

ـ أهلاً يا فاطمة، مساء النور.

ـ خير، مالك مهموم؟

ـ أبدًا، سلامتك.

ـ يا خبر، هو أنا مش عارفاك. مالك زعلان؟

ولم يشعر عزيز بنفسه إلاّ وهو يقول.

ـ في مشروع جديد مش عاوز أعمله

سألتْ بحسم:

ـ ليه؟ يغضِبْ ربّنا؟

ـ جايز، أصله يمكن يسهّل للأمريكان حاجات كتير.

ـ وده يغضِبْ ربّنا في إيه؟ هم الأمريكان مش ساعدونا في سيناء؟

ـ أيوه يا فاطمة. لكن أنا لمّا أعمل المشروع ده، الأمريكان ممكن يضربوا سوريا. (قالها بهمس وكأنّه يحدّث نفسه).

ـ والله أنا أبويا قال لي إننا ما خدناش من سوريا غير وجع القلب أيّام عبد الناصر، واننا انهزمنا بسببهم. وانت دلوقت عايز تقطع عيشك علشانهم؟

سأل بلهفة:

ـ وأبوك قال لك إيه عن العراق؟

ـ كمان خايف على العراق؟ ما حدش قال لي حاجة، بس اللي أعرفه إنّ ابن عمي رموه رمية الكلاب بعد ما كان بقالُهْ عشر سنين بيشتغل عندهم لا يا سي عزيز، انت كده، لا مؤاخذة، مش عاجبني، ويظهر إنّه في حاجات كتير إنتَ مش فاهمها.

عندها استأذن منها عزيز ليدخل شقته وينام.

وفعلاً، استلقى المهندس ابن الأربعين عامًا على فراشه وحاول أن يخلد إلى النوم.

جمال عبد الناصر، ذكّرتْه فاطمة به دون أن تَقْصد. رجل حدّثه أبوه عنه مرّات، وهو نفسه يَذْكر بعضًا من خطبه الهادرة تَصْدح في منزلهم وقتذاك. فكّر عزيز بأنه لو كان عبد الناصر حيًا، فهل كان سيرضى بأن يَنْتدب مهندسًا مصريًا ليساهم في ضرب سوريا؟

❖ ❖ ❖

ـ سلام عليكم يا مولانا.

قالها عزيز بعد صلاة الجمعة للشيخ متولي، إمام جامع الحيّ الذي يقطن فيه.

ـ وعليكم السلام يا عزيز يا ابني. انت فين ما حدّش بيشوفك؟

ـ أبدًا يا مولانا، أنا بس كنت عايز أسألك في موضوع..

ـ اتفضّل يا ابني. ليس في الدين من حرج.

- بصراحة يا مولانا هو الموضوع مش في الدين. أنا باختصار مطلوب مني أصمّم عمارة ممكن يستعملها الجيش الأمريكي للتعدي على دولة صديقة. أعمل إيه؟

- لا حول ولا قوّة إلا بالله ومين يا ابني اللي طلب منك المسألة دي؟

- اللي باشتغل عندهم، الجماعة اللي باكل عندهم عيش.

- قال الله في كتابه العزيز ﴿أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم﴾ وانت قلتها. إنتَ بتاكل عيش. أما حكاية أمريكا ودولة صديقة ومش عارف إيه، فدي سياسة وأنا ما بافهمش فيها. وربّنا معاك يا عزيز يا ابني.

أدلى الشيخ بفتواه وحمل حذاءه تحت إبطه وخرج من المسجد. خرج عزيز وراءه، متذكّرًا المرحوم الشيخ محمود الذي كان عقب الهزيمة عام ١٩٦٧ قد أفتى للمصلّين في المسجد الذي كان إمامه بجمع الصلوات في المساء ليتسنّى لهم تحصيلُ التبرّعات لأُسَرِ الشهداء في النهار دون انقطاع.

❖ ❖ ❖

لم يبقَ على انتهاء المدّة غير ثلاثة أيّام، وعزيز على حاله، يُنْجز وفريقَه الصغيرَ ما يَقْدرون عليه من خرائط ومواصفات، ويستفتي مَنْ يثق به حول أخلاقية الموضوع خلال ما تبقى من وقت فراغه.

في يوم الجمعة الذي تلا يومَ زيارته للشيخ متولي، وجد عزيز نفسَه تلقائيًا يستقلّ سيارةَ أجرة ويذهب إلى منطقة أهله. وكان مقصده تحديدًا منزلَ عمته.

أم حسن سيدة مسنّة في الخامسة والسبعين، لم تتزوج، ولكنْ أحبت أن تسمّي نفسها أم حسن تيمّنًا بمعلّمتها أيّامَ الصبا. وقضت معظم عمرها تدرّس في مدرسة حكومية ابتدائية حتّى تقاعدتْ.

استقبلته العجوزُ بالترحاب، وقدّمتْ له الطعام، وشرعتْ تحدّثه بآخر المستجدّات في حيّهم، وأسهبتْ عن المدرسة التي كانت تدرِّس فيها ولكنّ عزيز لم يَسْمح لها بالاسترسال، بل جرّها إلى الموضوع الذي كلّفه أكثرَ من ثلاثين جنيهًا أجرةً للتاكسي.

قالت العجوز بعد سماعها الديباجة:

- أنا مستغربة انك جاي من آخر الدنيا علشان تسأل سؤال زي ده، وإنّك لسّه ماشي في الشغل. وقّفْ فورًا!

- بتقولي إيه يا عمتي؟ أنا كده ممكن اترفِتْ..

- يا ابني اسمع الكلام. هو انت لسّه حتتعلّم الصحّ من الغلط وانتَ في السنّ ده؟ انتَ ناسي أبوك ربّاك على إيه؟

- أبدًا يا عمتي، إنما...

- لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، بقى يا ابني بَدَلْ ما كنت لازم تكون اتجوزت وبتربّي أولادك على مبادئ الحرية والكرامة، جاي تسألني زي الخيبان: أضرب سوريا يا عمتي ولاّ لأ؟

- يا عمتي، الموضوع مش بالبساطة دي!

صرختْ أم حسن:

- اِخرسْ يا ولد! مش كنت عايز تسأل وتستشير؟ أديك سألت. عاوز دلوقت تسلّم المستندات، يبقى ما تورنيش وِشّكْ تاني. مفهوم؟

شعر عزيز بأنّ وجوده أصبح ثقيلاً، فلملم نفسَه المبعثرة واستأذن

❖ ❖ ❖

أقبل صباح الاثنين، ودخل عزيز بخطوات ثقيلة إلى مكتب أحمد عطيّة الذي استقبله بترحاب زائف قائلاً:

- هيه يا بطل، كلّه أوكي؟

جلس عزيز، ثمّ وَضَعَ على المكتب بعناية مجموعةً من الخرائط والوثائق، بالإضافة إلى قرص مدمج كان قد خَزّنَ عليه خرائطَ المشروع ووثائقه، ثمّ أردف قائلاً:

- اطمئن يا افندم، الخرايط والمواصفات كلها أهيه، وكلّ حاجة على القرص ده، ونقْدر ندّيه لأيّ حد طالع بغداد من دلوقت، وهناك الجماعة يفتحوه ويطبعوا نسخ إضافية براحتهم. بس قَبْل ما نسلّم ، عندي طلب صغيّر من سعادتك.

ابتسم عطيّة ابتسامة باهتة وقال:

- خير يا أبو العز، عايز تتشرّط إيه؟

- استغفر الله يا أحمد بيه، حاجة صغيّرة قوي.

- قول يا باشمهندس...

- أصل «عصمت» قام بمجهود كبير في العشر تيّام اللي فاتوا، وهو يستاهل إنّه يوقّع على الخرايط والمواصفات مباشْره وبدون توقيع المشرف عليه ممكن ندّيله الفرصة دي؟

ضحك أحمد ضحكة عالية وقال:

- والله وبقيت مفاوض على سنّ ورمح يا عزيز. يعني عاوز تقْنعني إنّك بتفكّر ليل ونهار في مصلحة عصمت؟ عاوز تزوّغ من التوقيع؟ وطنيتك قامت من النوم؟ خلاص يا سيدي، زيّ ما تحب...

تهلّلتْ أساريرُ عزيز قبل أن يردف:

- بجدّ يا افندم؟ يعني اسمي مش حاينزل؟

- خلاص يا عم مش حينزل. وليه هو في حد حيقرا أصلاً؟

- أنا عارف؟ إنما يعني.. الحمد الله.

- خلاص، ارتاح ضميرك؟ روح يا سيدي صلّي ركعتين واشرب كبّاية شاي. انت تعبت وأنجزت. براڤو ويللا فضّيلي مخّك للمشروع اللي بعده.

- حاضر يا افندم. عن إذن سعادتك، أنا حانْدَهْ لعصمت علشان يمضي، وبعدين خلاص. هيه، مين أول واحد طالع بغداد علشان ندّيله الخرايط والقرص؟

أجاب أحمد بضحكة خبيثة هذه المرّة:

- خرايط إيه وقرص إيه يا عزيز؟ أنا جيت امبارح وبعتت كلّ حاجة عبر العناوين الخاصة اللي على الإنترنت. هو أنا كنت لسّه حاستنّى والكومبيوتر جنبي، وخصوصًا إنّ الأميركان كانوا مستعجلين، عاوزين يلزّموا العقد لأول مقاول ويخلصوا؟!

بلع عزيز ريقه وسأل:

- يعني، الموضوع خلص امبارح؟

- أيوه يا حبيبي، ومن غير إمضاءك كمان.

عاد أحمد يعبث في غليونه أما عزيز فقد خرج وهو يحكّ رأسه، شاعرًا ببعض المهانة... وبرغبةٍ قويةٍ في التفكير.

الدوحة